مراودات

هيفاء أبو النادي

قهوة

قهوته تدوم. لذا يبدأ بها صباحَهُ باكراً، ويُكملُ نصفَها في منتصف النَّهار. تُلازمه. ربما تكونُ رائحةُ طزاجتِها الأولى هي ما يجعلُهُ يستمرُّ في ارتشافِها رغم بُرودتِها، وربَّما هنالك أشياءُ أخرى لا يُفصحُ عنها. ربَّما يشعرُ بالواجبِ والمسؤوليَّةِ تجاهها. قهوته مسكوبة في كوبٍ من ورق؛ يتغيَّرُ لونُهُ وشكلُهُ وحجمُهُ كلَّ يوم بحسب اختلافِ «كشك» الشِّراء. يقضيان معاً نهاراً كاملاً، إلّا أنَّهُ يترُكُها على سطح طاولةٍ، أو عند أوَّلِ حافة متى انتهى النَّهار. يتركها دون رشفةٍ أخيرة أو حتى كلمة وداع. يتركها ليعودَ إلى عالمِهِ؛ واثقاً أنَّ كوباً ورقيّاً آخرَ من القهوة ينتظره في أحد الأكشاك، غداً، وبعدَ غدٍ آخر، وآخر.

غيـاب

كانا واقفَيْن لحظة انسكبَتْ القهوةُ على معطفِه الأسود، بينما تعاين خطوطاً عند زاويتي عينيه. فهو عندما يبتسم تبتسم معه تفاصيلُ جسدِهِ كلِّها وتتفتَّح: تزدادُ خطوطُ عينيه اللامعتين وضوحاً، تهتزُّ كتفاهُ، ويرتسمُ على قسماتِهِ ما يشي بحنينٍ إلى ضحكةٍ اعتادَ أَنْ تغمُرَهُ منذُ وقتٍ قريب. انسكبَتْ قهوتُهُ مُتَّخذةً خطّاً مُتذبذباً من قطراتٍ سيتركُ أثرُها رائحةً وبُقَعاً داكنة على معطفِهِ ما لَمْ يُسارع إلى تنظيفه. بدا منزعجاً، ربما لأن معطفه ما يزال جديداً. راجعت معه تفاصيلَ انسكابِ القهوة. تحدَّثا عن أمرٍ ما لا تذكر منه سوى أنه يتعلق باللون الأزرق. أكانا يتحدثان عن البحر، السماء، أم ملاءات السرير التي ما جرؤت على الحديث عنها؟

اهتزَّ ساعِدُهُ فجأة فانسكَبَتْ القهوة.

ربما حدث هذا إثر لمسةٍ طائشة من يدها ليده، حين ناولتْهُ كوب قهوته الكرتوني صباحاً. شردت، لكنه استدرك شُرودَها بتنبيهها إلى التماع عينيها. عندها أحسَّت: «شيءٌ ما يُكتَبُ في داخلي الآن»، ثم وجدَتْهُ يخبرها بثقة أنها ستكتبُ عن قهوته. كيف عرف؟ دسَّت يدها في حقيبتها لتُناوِلَهُ منديلاً ورقيّاً اعتذر عن أخذه. التمسَتْ له عذراً: «لا بُدَّ أنه يحتفظ بمنديلٍ ما في جيبه».

هكذا تسلسلت تفاصيلُ لقائهما المقتضب إلى جانب الطريق. حدَّثَتْ نَفْسَها بثقة عالية، رغم عدم اكتراثها بصوتها الذي عجز عن الكلام إلا سرّاً. لحظتئذ، جاءها صوته المُبتسر والعجول: «أراكِ غداً».

سكنَتْ مُحاوِلَةً التشبثَ بالغد القادم.

كان صادقاً بالفعل،

لكنه من فرط صدقه غاب.

Refresh

عندما يتأخر البريدُ الإلكترونيُّ في إيصال رسائله إليها، تفترض أنَّ خللاً ما أصابَ الإنترنت في العالم، أو عُطلاً أحاقَ بحاسوبه وهاتفه معاً، أو عارضاً ألَمَّ به لَمْ يُمكِّنْهُ من الإرسال. إنها، في قرارة نفسِها، تعرف جيداً أنه هو مَنْ يتأخر في ذلك، وأنَّ الإنترنت في العالم كله بخير، ولا خلل فيه. مع ذلك، لا تقاوم إغراء الـ«ريفريش» في أعلى صفحة البريد. تضغط عليها وتحبس أنفاسها وتنتظر. تضغط مجدداً على أمل أن يحصل تغيير ما. تُقفلُ عينيها جيداً، وتَعُدُّ حتى الرقم عشرة، ثم تفتحهما. أما النتيجةُ فغالباً ما تكون: لا رسائل. تحزن، ثم تبدأ بعدِّ خيباتِها واحدةً واحدة إلى أن تُغريها إعداداتٌ أخرى متوفرة في أعلى صفحة البريد، فتقرر اختيار آخر رسالة منه بوضع إشارة «صح» في المربع إلى جانبها، لتكونَ ضمن الذي «لم يُقرَأ بعد». تقوم بهذا متيقنة تماماً بأنها، بفعلتها هذه، إنما تستعيدُ إحساسَها السابق،

وحماسةَ انتظارِها،

وتَوهُّجَ عينيها،

وتَسارُعَ ضرباتِ قلبِها،

وبُرودةَ يديها: يحدث هذا لحظة تضغط على «ريفريش» مرة أخيرة، لتعتقدَ، وهي على خطأ، أنَّ رسالة جديدة منه وصلَتْها للتو.

«براونيز» بطعم الشوق

ما لا يعرفه هو أنه عندما يعصف بها الشوق، وتجتاحها رغبةُ أن يُلملِمَها ويجمعَ شَتاتَها بين كفيه المربعتين، وهو هناك في البُعد، تصبح الحلوى صنعتها ورفيقتها في ظل غيابه وعدم اكتراثه. تحلم به يحاول ملامستها كلما نخَّلت الطحين. لجسدها مسامات شفيفة كمنخل يعبق برائحته مذ التقت به أول مرة. تصارحه بحقيقة أنه أبيض وواضح كالطحين على نحوٍ غير مفهوم، وكأنها بهذه الملاحظة تعاقبه على شيء ربّانيٍّ لم يكن له أيُّ يدٍ فيه. لجسده عند لقائها به ملمسٌ يشبه طراوة الزبدة في أولى مراحل ذوبانها. وفي عينيه تتدفق رقائق الشوكولا نصف محلّاة؛ ولِمَ النصف؟ لأن اكتمال الحلاوة لا يتحقق إلّا في إطالة نظرها في عينيه اللوزيتين. تحسده على رموشه القاتلة، وتتذكر رسم حاجبيه، وتغرق في عينيه، بينما تسكب كوباً كاملاً من رقائق الشوكولا شبه المحلّاة على الزبدة الذائبة تحت نارٍ تنوسُ فقط، لكنها تشتعل في قلبها أكثر. اختلاطُ سمرة الشوكولا بالزبدة وامتزاجهما معاً يذكِّرها بقبلتهما الأولى. تحاول القفز سريعاً عن هذه الحيثية إثر إحساسِها بخفقان قلبيٍّ جارف يساعدها على تحريك المزيج بخفة وسرعة، ولا تنسى طبعاً أن تطفئ النار أثناء ذلك.

تنحاز لذاكرتها كلما حاولت أن تطويَ منها أيَّ صفحة، خاصة جاليري الصور المحفوظ في رأسها وفي هاتفها النقال على حدٍّ سواء. تفقس ثلاث بيضاتٍ فوق خليط الزبدة والشوكولا بحرصٍ عالٍ، وتخفقُ المكوناتِ كلَّها في وعاء پايركس عميق بسرعة ملحوظة، وكيف لا وهي لا تريد للبيض أن

ينضج فوق الخليط السّاخن. تبدو مراحلُ إعداد «البراونيز» ناجحة حتى اللحظة، لكنَّ خوفاً بحجم وحش العلبة يستقرُّ في قلبِها كلما حاولت التملص من فكرة أنه يتقصدُ إهمالَها رغم اهتمامِها الكبير به. تحاول الفكاكَ من أفكارها السوداء بأن تسكب ملعقة إثر أخرى من الطحين المُنخَّل الذي يشبه نقاءه وبياض جسده بينما تستمرُّ في التحريك مُستخدِمَةً خفّاقةً يدوية.

تخلطُ المزيج إلى أن يصيرَ أعقد وأسمكَ وأثقل. تحسُّ بقلبها يثقل كلما سارعت في عملية التحريك؛ فلا يتجاوب معها الخليطُ الكثيف. تفكر مليّاً في مكوّنات الحلوى التي تصنعها، وتتذكر أنَّ أوان السُّكَّر حان. تضع على الخليط كوباً كاملاً من السُّكَّرِ الأبيض، وتبدأ التحريك من جديد، لتكتشف بأنَّ السَّماكة السابقة بدأت تتلاشى شيئاً فشيئاً إثر تسرُّبِ حبيبات السُّكَّرِ الدقيقة. هنا بالضبط تستذكرُ القُبلة التي عاجلها بها، عندما احمرَّ وجهُها وبرقت عيناها وتسلَّلَتْ إلى قلبها فرحةٌ بلون قوس قُزح؛ فغمرها في حضنه دون أن تعي، وهمس في أذنها: «هكذا تكون القُبَل يا عزيزتي، إنها تُؤخَذُ أخذاً ولا يُعَدُّ لها أو يُحضَّر..»

في الأثناء، يستعيدُ عقلها الباطن رائحته التي لم تعرف لها توصيفاً وقتئذ، إلا أنها تستقرُّ الآن على أنَّ له رائحة الـڤـانيلّا. تفتح غطاء العلبة، تستنشق الرائحة، وتسكب منها على الخليط السابق ما يعادل ملعقة صغيرة. تُدوّرُها الرّائحةُ وتُدهشُها مثل طفلةٍ فَرِحَةٍ بفستانها الذي يدور ويتلون ويُحَرّكُهُ الهواءُ فيعلو ويطير.

تُقلِّبُ صُوَرَهُ في هاتفها وتكبّرُ إحداها لتغرق في عينيه اللوزيتين، فتتذكر أنَّ عليها أن تدقَّ نصفَ كوبٍ من اللوز غير المقشَّر، وكوباً من رقائق الشوكولا نصف المحلاة تضيفهما على الخليط الموضوع في وعاء الـپـايركس، ثم تخلط جميع المكونات بحرارة عاشقةٍ لا يكفُّ قلبها عن الخفقان. الآن فقط تعي حقيقة أن لا حاجة لوصفة مكتوبة تسترشد بها من حين لآخر، لذا تكتفي بالنظر في صُوَرِهِ فتعرف المقادير وطريقة التحضير على الفور. تكاد تنسى أن تُصوّرَ المزيج بعد أن تماسك وقبل خَبْزه. تفعل ذلك باحترافِ مصوّرَةٍ متمرّسَة ثم تُرسل له كلمة «قَبْل» ومن بعدها الصُّورة. تصله رسالتها. يقرأها لكنه لا يتحفَّزُ للرد على ما يبدو. تُغيظُها سلبيته، ومع ذلك تتابعُ عملها بأن تسكبَ الخليط كاملاً في صينية خَبْزٍ دائرية. تحبُّ الدوائر لأنها تذكّرُها بشكلِ قلبه رغم أن كلَّ ما في جسده مربع.

يمضي من الوقت ما يكفي لتنضج «البراونيز». تُسرع في إخراجِها مستعدَّةً لتقطيعِها ساخنة فتسهل المهمة. تصوّرُ الحلوى من جديد، ثم ترسل له كلمة «بَعْد» مع الصُّورة. تنتظرُ أمرين: استجابته وبرودة الحلوى قليلاً. تبرد الحلوى لكنه لا يستجيب. تنقلها إلى وعاء آخر، ثم تلتقط صورة جديدة، وترسلها له. يتجاهلها من جديد. تفكر: يبدو أنه عالقٌ في اجتماعٍ لا ينتهي مع مسؤولين متطلِّبين وقضايا هامة وحسّاسة وطازجة. فالوضع في أوكرانيا مقلق، بحسب ما أخبرها قبل أسبوع، وما تتناوله الصُّحُفُ اليوميَّة والقنوات الإخبارية قاطبة. تلتمسُ له ألفَ عذرٍ، وتغرقُ في أكل الحلوى، وبداعي الشَّوق تنام دون أن تغسل أسنانَها على أملِ أن يزورَها في المَنام.

حساسيَّةُ حُبّ

طبعاً، مَنْ في مثل مكانته وشخصيته البارزتين في المجتمع والحياة السياسية لن يحتفظ لنفسه بحساب فيسبوكي واضح الاسم والمعالم. ربما يكون لديه حساب باسم مستعار لا يعرفه إلا أفراد معينون من العائلة والأصدقاء، وهو بطبيعة الحال لا يَعُدُّها منهم. يُغضِبُها أنها ليست منهم، لكنها لا تستطيع أن تفعل أي شيء في الوقت الراهن أكثر من أن تقرأ ما يكتبه إخوته، وزوجته، وأولاده، وأقاربه على صفحاتهم. وصل بها الأمر حدَّ معرفة مواعيد مناسباتهم وأفراحهم وأتراحهم من خلال ما تكتبه عائلته الكبيرة. وعندما يعتذر عن موعد لقاء مرتقب كان مُعَدّاً بينهما، لا يطمئن قلبها إلا إذا قرأت أن انشغاله الذي حدثها عنه بشكل مبهم يتوافق مع توقيت مناسبتهم في ذلك اليوم.

تترقب منه إيميلاً لن يصل. تراقبُ عقاربَ السّاعةِ المعلقةِ على حائط غرفتها وتحرص على عدِّ دقاتها دقة تلو أخرى. الوقت بطيء. الوقت مرير. هكذا تُحدِّثُ نفسها كلما انتبهت إلى الوقت الرّاحل، وذاك الفاصل ما بين دقات قلبها. تحاول الفكاكَ من ذكرياتها معه، لكنها تُعيدُها إليه من جديد: على السرير، إنها معه الآن، فوق صدره الأبيض، عبثاً تحاول المكوث هناك أطول فترة ممكنة. تتسلل منها تنهيدة بحجم أرقه ـ فهو لا ينام كما ينبغي ـ وتنسلُّ من بين شفتيها إليه دون أي حواجز. هناك بالضبط، فوق ركبته اليمنى تنثني ساقها لترصد سخونة جسده البض. لا تشكُّ للحظة أنها في الجنة. تعانقه دون أن يدري أو يتشبث بها أو يتحمل عناء احتضانات لا يريد لها أن تتبلور على أرض الواقع، وأي واقع أجلُّ وأسمى وأرفع من سرير بحجم غيمة يقيمان عليه مدة ساعة من الزمن كلما شاءت الصُّدَف. في احتضانه تسمع ضربات قلبه تخفق وتتسارع، تريد اللحاق بها ولكنها لا تستطيع؛ فهو أسرع من أن تلحق به وإن تشاركا الفِراش الواحد.

CUT ـ هكذا تنتهي اللقطة في رأسها.

ترسل له رسالة محمولة: «مشتهية أسمع صوتك».

تصله الرسالة ولا يصلها منه رد.

تنتظر.. تترقب.. تحبس أنفاسها.. وتُسائلُ نفسَها: «هل وصل الرد؟» ثم تُجيب: «ليس بعد. لا، لم يصل رده بعد».

تنتظر أكثر.

ثم أكثر.

بعد أكثر.

تملُّ انتظارها إلى أن تجمع طاقتها كلها وشجاعتها، غير عابئة بردة فعله لو غضب، وتهاتفه بحرارة ملتاع لا تنقطع أو تتوقف، بل تستمرُّ في الصعود إلى أن تتكلل على هيئة رنة إثر رنة إثر أخرى.. دون أي جواب.

هي «بصلتها محروقة»، وهو «حباله طويلة»، وعندما يحرمها سماع صوته على الهاتف، لأسباب صحية وأخرى نفسية وعائلية وانشغالات باجتماعاته التي لها أول وليس لها آخر، تتشكل في داخلها علامات قلق كثيرة. تغرق في احتمالاتٍ مفادُها أنه ما عاد يريد صحبتها، أو الاستئناس بها، أو

الاستمتاع بلقياها. ولأن حبها له طافح، بان على وجهها وعنقها على هيئة بثور صغيرة لا تكاد تُرى بالعين إلا عندما يشتد بها الشوق، فيحمر خداها بمعدل خمس درجات إضافية عن المعتاد، وتبدأ البثور بالحكة والتناثر والتصارع في كل اتجاه، فتأخذ راحتها بأن تنفرد على شكل طفح أحمر هنا وهناك. تنظر في مرآتها وتقول: «يبدو كأحمر الخُدود، لكنه رباني خالص.» لا تتناقص هيبتها ولا ثقتها بنفسها قيد أنملة، إذ تتساءل بينها وبين نفسها وتلومها في الوقت نفسه: «أتكون هذه حساسية الحُب؟» تصفن قليلاً ثم تتابع تفكيرها: «تلك الحساسية التي لا يريد أحد أن يصاب بها كي لا يَعْرفَ رفيقه عنه أنه هائم به، فيفارقه إثر ذلك، لأنه لا يريد أن يكون مسبباً لآلام مَنْ يؤمن به صديقاً ورفيقاً للروح».

انشغاله الروتيني هذا بات أمراً معتاداً بالنسبة لها لدرجة أنها قامت بتحجيم شوقها له ورغبتها في التوحد معه إلى مجرد لقاءٍ عابر تجتاحه معانقة بريئة ربما توصلهما -إن هو اقتنع- إلى النوم إلى جانبه في سريرٍ واحد دون أيّ عريٍّ وبخجل كبير على وجهها. تتعمد جعل روحه تتوقد إلى أن تصل به حد النشوة الطافحة باسمها يردده كلما اقتربا من السرير. يستسلم للاشتعال في عينيها. وكلما حاول الهرب، تلقفته رغبتها به سريعاً وأوغلت فيه إلى أن يصيرا على الفِراش سويّاً: ذراعه تحت عنقها، ذراعُها فوق صدره وكتفه، باقترابٍ شفيفٍ خفيفٍ لطيفٍ، وبشهوةٍ غامرةٍ تردم الفجوة قليلاً قليلاً ما بين شفاههما.

«اتركيه قبل أن يتركِكِ».

ترنُّ في أذنيها هذه العبارة الغارقة بالقسوة والشقاء. تمسحُ باطن كفِّها في باطن كفه اليسرى، وتغني له كل أغنيات الفراق قبل أن تُودِّعَ حضنه بارتعاشةٍ ستكون الأخيرة حتماً. تلمُّ ما سقط منها على الفِراش، بعد أن تحسَّسَ وعيُها الأزليُّ أنْ لا فائدة تُرجى من بقائها مع مَنْ سيُرديها قتيلة عند أول مفترق طرق.

لا يعلمُ أنها تعلم . .

لا يعلم أنّها تعلم. فلطالما استطاعت أن تفكَّ العقدة في حاجبيه وتحللها، كما لو كانت تُعِدُّ ورقة تحليلية بحثية لتقديمها في مؤتمر ما. يصرُّ على التمسك بتعقيدة حاجبيه تلك، كلما أطالت تأمل وجهه وعينيه. هي تحبُّ وجهه وترى الصبحَ في جبينه. هو لا يرى منها أكثر من خاصرة تمنّى تطويقها بيمينه، ونال ذلك. لا يعرف أنها تعرفُ أن لديهِ نظراتٍ تعبيرية ثلاث تحارُ في وصفها، وتغرقُ كلما أرهقها بواحدة منها. نظراته تلك تشقُّ الطريقَ إليها كلما أبى التواصل معها وغاب، وترسم خيوطاً من خيالاتٍ تومض ثم تذوي بلا استئذان.

الأولى: عندما كان يخبرها، بسلامِ يده المشتاق، كم يشتاق إليها، دون إفصاح؛ فيفتح عينيه على آخرهما ويبدأ بِتخيُّل أنها معه بكامل ألقها وشبقها واخضرارها.

الثانية: حين تشاركه الفِراش، فيفتح بوابة العناقِ بكفيه تعرّجان على مكمَنَيْ الدهشة فيها: كفَّيْها. يراقصهما بدغدغةٍ توقظ حواسَّها كلَّها، ما يجعله يعيد حسابات الزاوية التي ينظر منها إليها، ليلتهم وجهها بعينيه الصافيتين بنصف إغلاقٍ مُحكَم. في نصف النظرة تلك تتربع صورتُها داخل عقله،

فيتراءى إليها شبحُ دمعةٍ تنسدلُ من الزاوية اليُسرى لعينه. لا يدَّعي أنه يدمع، لكنه ينكرُ ذلك بقوة، رغم أنه يمكث في خانة الشوق والتعلُّق في لحظات الشبق هذه أكثر منها بكثير. يصرُّ على عدم تخريب اللحظة، فيدعها تتذوق طعمَ دمعته المنسكبة بِسَكينَةٍ موحية. تلمُّه بذراعيها لتستدرك انشغاله في السؤال عن الأسباب المحتملة، وغير المحتملة، لسقوط الدمعة، خاصة من الزاوية اليسرى لعينه اليسرى، ولا تساعده في إيجاد الإجابة.

الثالثة: عندما يُحدِّثُها على الهاتف، لحظة يستيقظ من نومه، وقبل أن يختار الكوب الذي سيشرب فيه قهوتَهُ. ينظر إليها عبر أنفاسه المختنقة إلا قليلاً جدّاً. تراه. أجل تراه. رغم أنه يكلِّمُها على الهاتف. وتزدادُ خطوطُ الفرحِ في زاويتَيْ عينيهِ كلما حاولَ تجاهُلَ اللهفةِ في صوتِها المُعبَّأ به. تغرورق عيناها كلما أحسَّتْ بقربِ انتهاء المكالمة؛ فهو لا يُطيقُ الإطالةَ في اتِّصالاته معها. يواظبُ على سؤالها إن كان هنالكَ ما هو مُلِحٌّ وعاجلٌ سبَّبَ إصرارَها على مكالمته. تردُّ بخبثٍ، وحيرة، وغيظٍ يكادُ يشتعل، كلما شعرت بصوته يتثاقلُ على الهاتفِ، مُحاوِلاً الهربَ من أسئلتها التي كثرت: «سماعُ صوتِكَ أمرٌ عاجلٌ ومُلِحٌّ، أليسَ كذلك يا عزيزي؟» ثم يضحكُ بملء الدُّخانِ الذي يملأُ رئتيه، بعد أن يستنشقَ ثلاثة أرباعِ سيجارته على الرّيق في تعجُّلٍ ملحوظٍ.

لا يعلمُ أنها تعلم.

حقّاً، لا يعلم. كيفَ، إذاً، استطاعت أن تحسبَ له أنفاسَهُ في الدقيقة الواحدة أثناءَ حديثهما على الهاتف؟ وكيف لها أن تَعُدَّ ضرباتِ قلبهِ، وهي تشاركه الفِراشَ، وصدرَهُ، بإصغاءٍ مُجِدَّةٍ راغبةٍ في المُكوثِ بين دقّاتِ قلبهِ المتسارعة كلما تذوقَتْ رحيق فمه بلسانِها.

أجل، إنه لا يعلم أنها تعلم. لذلك ربما يتركها أيّاماً وأسابيعَ وشهوراً دون أن يسأل عنها. يتركها غارقةً في أسئلتها المتراكمة الحائرة التي غالباً ما تبدأ بـ«لماذا؟». يتركها تبحثُ عن طرقٍ جديدةٍ للغرق فيه إلى أبعدِ حدٍّ. يتركها سارحةً في كوبِ قهوةٍ ورقيٍّ باردٍ تحدق فيه بذهولٍ واضح، وتستدلُّ عبره على رائحته التي لم تبرح بعدُ كفَّيها. تحدِّثُ نفسَها قائلة: «يبدو أنني لم أكن سوى كوب قهوةٍ ورقيٍ آخر اعتاد شربه لمدَّةٍ من الزمن، ثم ملَّهُ بثقةِ عارفٍ يعلمُ جيداً كيفَ يُسدلُ الستارَ على حكاياته.»

هذه القصص من مجموعتي القصصية الأولى:"على أهبة الحلم"

خيانة

- لن أسكت هذه المرة.. لن أسكت.

هكذا قالت وهي تصبّ الماء في إبريق الشاي، وتضعه على الغاز بسخط! تشعل النار بعود كبريت، وتزفر ربع ما يحتويه صدرها من غلّ. تجلس على حافة شباك المطبخ المطلّ على حمّام جارتها. تمدّ بصرها عبر أغصان الإجاص المتكاسلة، فترى أن الضوء مطفأ.

فجأة يشهق الماء على النار بقطرة تقفز إلى وجهها، فتصيح:

- آآآآي.. هذا كثير، كثير، ما عدت أحتمل!

وتقفز قرب الغاز كأنها تريد أن تلقنه درساً في الأدب، واحترام الآخر، وتقبل اختلافه وخصوصيته. تطفئه وترجع إلى جلستها على حافة الشباك. الضوء الآن ينير الغرفة المقابلة. ثمة خيالات لشخوص تترنح، تتباعد ثم تتآلف وتقترب. أصوات مرتفعة تتسلل بسرعة من أعلى شباك حمّام جارتها المفتوح نصفه. شهقات وضحكات تتناثر في الهواء البارد، هنا وهناك. ثم لا تلبث هي أن تحسّ بسخونة وقشعريرة تأكل معدتها باضطراب يزداد كلما ازداد عدد الشهقات، وارتفع صوت الضحكات! يقف نصفها الأسفل فقط أثناء نزولها عن الحافة، وتمسح بعريّ قدميها الأرض مُقاوِمة السخونة التي تلفّ جسدها. تستغرق مُحاوِلة النهوض بوقفة كاملة، وتضع شالاً بنياً حول رقبتها المتشنجة. تتابع تحضير الشاي، ثمّ تجلس على كرسيها الهزاز وفي يدها فنجان كبير. تشرب نصفه بصمت، وتبدأ بمعاينة بقايا ذهولها المنعكس كصورة طيفية على سطح إبريق الشاي. تفكر: "ما شأني أنا بها! فلتصنع ما شاءت ما دامت في بيتها." لكنها تستطرد: "لست وصية على أحد، فلِمَ أنصِّب نفسي وصية عليها؟"

ترفع قدميها على طاولة مســـتطيلة تحفز كلّ من يقترب منها على خلع حذائه، وإراحة قدميه فوق خشـبها العسـليّ. تؤلمها سـنّها الأمامية كثيراً، فتضـغط عليها بمنديل قديم. تفكر: "سـأزور أخي علّه يقنعني بطبيب أسنان جيد غير هذه الجارة!"

تهز الكرســيّ وتســتطرد: "صــحيح أنها طبيبة أســنان يُعتدُّ بها، لكنني أحسّ بأســناني تتألم أكثر كلما مسّتها!"

تسرّح بيسراها حاجبيها، وتقبض أثناء تمسيدها على شعرة وُلدت لتُقتلَع. تتشنّج. إنها لا تطيق الشعر في غير مكانه. تســـرع من فورها، تســـابقها قدماها الحافيتان، نحو ملقط وضـــعته في كأس قرب سريرها. تمسكه بلهفة وتعود للجلوس على حافة شباك المطبخ. الشمس هناك تحيطها بنور كاف لتقتلع جذر أيّ شعرة وليدة. المرآة في يدها، والشمس تريق ضياءها على المرآة بلطف. تحسّ بالزغب على وجهها يتكاثر فلا تعيره انتباهاً. تتنبه لصـوت آدميٍّ يصـّاعد تدريجيّاً من حمّام الجارة. تحبس أنفاسـها لتســمع بوضــوح أكثر. تعلو الهمســات العاشــقة بين خيالين لرجل لا تعرفه، وامرأة تعرفها. يتأجّج صدرها بالحرقة الشديدة وبتساؤلات جمة: "أنتِ يا دكتورة! أنتِ! لم!!"

يحتدم الصراع داخلها، وبسرعة تقرر: "سأوقفها عند حدّها الآن! وزوجها..! ذاك المسكين! ما الذنب الذي اقترفه ليعيش مع خائنة!"

تسرع إلى حذائها وتهبط درج العمارة راكضة. تفتح باب المدخل الرئيسي يلفُّها الحذر، وخدر لطالما عشَّش في يدها اليسرى. تفاجئها إطلالة الجارة آتية نحوها بسرعة. تركض على غير هدى، وتُسقط من يديها في كلّ ركن كيساً. وحين تجتاز نصف المسافة، تسقط على الأرض مرتعشة. تقترب منها، والدهشة تسيطر على كلّ ملامحها! فتقابلها جارتها الطبيبة برجفة حادة وعبارات ناقصة:

- خائن.. زوجي.. وجدته.. الخائن.. إحدى مريضاتي..

قرار

بعث بها ملســاء حمراء تســرّ الناظرين. أشـبعها رائحةً تفوح عطراً. همَّ بوضــعها في العلبة، لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة؛ فقد كانت شـــهية! أمســـكها بكفِّ يده اليمنى. نظر للخاتم يلمع في إصبعه. تنهد ثم ابتسم. ابتسم كثيراً. نهش جلدها الأملس الأحمر، وقضم ثغرها، ثم أعادها إلى العلبة. بعد وقت وصلتها الهدية. فرحة كانت. فتحت العلبة بلهفة. فوجئت.. تفاحة! اتّبعت ما يمليه عليها قلبها. قربت ثغر التفاحة من فمها حتى لامس شـــفتيها. حينها، أعادت الخاتم لإصـــبعها، وقررت أن تحبه أكثر!

ف ر ح

لا أطيق الكتابة إلا باستخدام حاسوبي الشخصيّ. هكذا اعتدتُ منذ أن اشتريته من نوع Dell، ولم أستطع أن أحبه حتى بعد مرور خمس سنوات. السبب بسيط: تعجبني أنواع أخرى متقنة الصنع أكثر. أفعّل جهازي، وأقضم إصبعاً عريضاً من الشوكولا التي أعشق ببطء شديد، وأتمتم قبل زوال طعمها: "مممممم.. لذيييييذة"!

أتذوقها كأنها المرة الأولى في حياتي. أفتح صفحة word وأطبع في منتصفها ثلاثة أحرف كبيرة: **ف... ر... ح...**

أسند رأسي إلى الوسادة، وأفتح أذنيّ جيداً لأسمع كلّ ما يُقال خارج جدران حجرتي. أسمع مكالمة هاتفية جمعت ثلاثة أطراف: والدي وأمي وطرف ثالث عبر أسلاك الهاتف.

يردد والدي الجملة ذاتها على مسامع أمي التي تتجاهله في البداية:

- قولي لها "نتشرف بكم، أهلاً وسهلاً"، ألا تسمعين!

تحاول أمي أن تلتقط أنفاسها المتسارعة. تبحث عن فرصة تنفذ بها وسط حديث أمّ بسّام، وجملها المتلاحقة، لتؤهّل وتسهّل فيرضى والدي، لكنها تفشل في ذلك. تنجح فقط عندما تستخدم حيلة قرع

الجرس، فتنهي بذلك سلسلة الأحاديث المضجرة عن الجارة التي تقوم بغلي غسيلها ثلاث مرات، لا لشيء ولكن لما تعانيه من وسواس قهريّ.

- الجرس يا أمّ بسّام.. الجرس!

فتردّ أمّ بسّام على عجل:

- حسناً.. حسناً.. سآتي وحدي هذه المرّة.

تجيبها أمي:

- أهلاً وسهلاً..

وتقفل السماعة على الفور، لأن والدي بدأ بالزعيق:

- قلت لك قولي لها "نتشرف بكم" فلم أنقصتِها؟ ها؟ لم؟

تعلن أمي سخطها، فيبتعد والدي وهو يلوك كلمات غير مفهومة. كلمات يظلّ يرددها إلى أن يغيب صوته، بينما قُرِع باب حجرتي. تفتحه أمي بسرعة، وتقول:

- استعدي، أمّ بسّام في الطريق إلينا، ارتدي شيئاً مكشوف الصدر قليلاً كما اتفقنا.

وتغلق الباب باستعجال، دون أن تنتظر سماع أيّ ردّ مني.

كنتُ مستلقية على السرير حين رنّ هاتفي النقال. فتحتُ الخط بسرعة لكنني لم أجب مباشرة. كان لون وجهي يبهت شيئاً فشيئاً إلى أن أوقف صوته ذهولي وهو يقول:

- ألو.. أللووو، حبيبتي أللوو..

وضعتُ الهاتف على أذني اليسرى، تماماً كما يحبّ، وأجبته:

- نعم.. نعم، أنا معك الآن.

ردّ باستغراب:

- ما المشكلة؟ أحسُّ بأنك شاردة الذهن.

قلت له بكل ثقة:

- الموضوع نفسه، لكن اطمئن، أعرف جيداً ماذا سأفعل.

ضحك بخبث وردّ:

- لهذا أحبّكِ.

وأقفلتُ الخط على استعجال قبل أن أجيبه: "وأنا كذلك".

***

دقّ جرس المنزل، وقبل أن تفتح أمي الباب علا صوتها تؤكد عليَّ:

- لا تطيلي الاستعداد. أرجوك أحسني احتساب الوقت. بعد دقيقتين من الآن أحضري القهوة.

فعلتُ ما طلبت. لم أنسَ، قبل أن أخرج للضيوف، إكمال آخر طقوس جمالي برشة عطر صغيرة خلف أذنيّ، وأخرى على رسغي الأيسر. سرتُ على مهل، أحمل صينية القهوة المذهبة التي لا تخرج إلا لمن هم من علية القوم وأعزّ الأحباب. وشى صندلي عن نعومة قدميّ ونظافة أظافري. أما الحمرة على شفتيّ؛ فبدت وكأنها ربانية خالصة، رغم أنها من صنع يديّ وكثير من مستحضرات التجميل. سلّمتُ على الضيوف. كنّ ثلاثة بعكس الاتفاق: أمّ بسّام، وأختها، وابنة خالتها. أخذنني بالأحضان، وبدأن رحلة التفتيش والشم. سُرَّتْ أمي بفرحهنّ الذي بدا ظاهراً كعين الشمس على وجوههنّ، حتى إنني شعرت بها تريد أن تقول: "الحمد لله أنها لم تحرجني كعادتها".

أحببن القهوة فشربنها كاملة. وقبل أن تنتهي الزيارة، خاطبتني أمّ بسّام:

- غريب، لم نسمع صوتكِ، كيف حالك يا عروس؟

تصنعتُ الخجل فاحمرّت وجنتاي، وعدلت من بعد ذلك تنورتي من طرفيها، ثم قلت:

- الحمد لله أنا بخيــ(و)..

نظرت أمّ بسّام نحو قريبتيها وكأنها تريد أن تسأل: "أفهمتما شيئاً؟"

لكنّ أختها توجهت بالسؤال إلى أمي، التي ارتبكت وقالت بدهشة واضحة:

- أعيدي ما قلتِ!

فأعدتُ:

- أنا بخيــ(و) بخيــ(و)، أنا فقط مـــ(و)تبكة بعض الشيء.

ثم ضحكتُ بدلال وغادرتُ غرفة الضيوف.

***

ما إن فتحتُ باب حجرتي وأغلقته بإحكام خلفي، حتى ركضت نحو هاتفي الذي كان يرنّ وقلت:

- كله تمام.

فأجاب:

- ماذا فعلتِ هذه المرة يا شقية؟

ضحكتُ بغرور وأنا أنظر في صفحة الـ word أمامي، حاذفة منها حرف الراء، ثم أجبته:

- من اليوم فصاعداً أنا فـ(و)ح.

أصدقاء

لم تكن ممن يسترسلون في التعبير عن عواطفهم، ولم تكن صادقاً إلا بما يكفي لإتمام صفقة زواج رابحة في عُرف كل من عرفك. كنتَ تُعرف باسم "الحوت" لأنك ممن يطيلون المكوث في الدرك الأسفل من المحيط، ثم يعاودون الظهور على السطح وفي أياديهم سلَّم ذهبي يوصل إلى المزيد من البريستيج. أما أنتِ فلم تكوني سوى سلم حديدي صدئ يستعمله هو للوصول إلى مآربه. أعلم أن الغيرة تقتلكِ الآن لأنني احتللْتُ منزلتكِ عنده. رقم هاتفكِ حذفه ورقم هاتفه تغير. لا مجال للعبور أو التواصل إلا من خلالي. ولا شيء توصلينه إليه سوى بقايا شوق محنَّط أردتِهِ أن يكون كذلك حتى لا يذبله مزاجُكِ المتقلّب. لستِ إلا امرأة طائشة أخرى اختارها كي يسلّي بها ضجره. تقولين: لِمَ أنا؟ وأقول: لا شيء يأتي كما نشتهي. كنتِ وما زلتِ رقماً في مخيلته لن تتغير منزلته، ولن يُعلَن عن وجوده، ولن يصعد هو أمام الناس ليشهد أنك حية ترزقين!

أنتَ تقول إنها لم تكن سوى مخدعك في الليالي الحالكة، وأنتِ تقولين إنه زير نساء ولا ينبغي لجنس امرأة الوثوق به! تقول إن الحبَّ مفقود، وتقولين إنه موجود في قلبكِ وعلى أطراف حواسك الستة! تقول إن سعادتكَ معها مرهونة برقم هاتف نقال وشبكة، ينقذكَ وقوعها في زحمة الخطوط. وتقولين إن القصة أكبر من مجرَّد أن تكون ضحكتكِ طازجةً تماماً كاخضرار الريف!! تقول إنك لم

تَعدْها بشـــيء ســـوى أن تكون مُلكها في لحظة أن تكون هي مُلكاً لك. وتقولين إنه يكذب لأنه يعيد اللحظة بكلِّ ما فيها طوال الوقت!

"ستتزوج؟ قريباً جداً؟!"

أسمعكِ تتساءلين..

تجيبها من بعيد بصوتك اللاهث المطالب بجسدها: آجلاً أم عاجلاً سينتهي كل شيء بيننا.

تَشـتُمينه بحب وتحاولين أن تقفزي عن هذه الإشـكالية. تسـاومينه من أجل البقاء. أراكِ الآن تكشفين عن ساعدكِ الأيمن كي يشمّ رائحتك ويبقيك مخبأة تحت إبطه! لكنّكِ تنشغلين في البكاء!

تسمعها وهي تبكي، وتراقب أفولها وانطفاءتها، لكنكَ تُسكِت قلبها بضربة أخرى: نحن أصدقاء.

تتمادى في حماقتك، وتريدها أن تنصـــاع لأفكارك معتقداً أنكَ الوحيد الذي على حق، لكنك تنشغل في فكِّ رموز امرأة أخرى لا تعرف عنها سوى أنها شفيفة وشابة يافعة. امرأة تبقيكَ يقظاً تفكر بها طوال الليل، محدِّقاً في سـقف الغرفة. تلهيكَ نظراتك تلك عن رصـد هيئة صـوتها وهي ترتجف، بينما السماعة على أذنكَ اليسرى تستقيل من الخدمة بلا أمل في العودة. لا شيء يثنيكَ عن فعلتك.

تخبرها وتؤكد لها أنك قادر على مُقاومتها، وتبكي هي في سرّك. تخاطبكَ بتواطؤ العارف: لا بأس إن كنا أصدقاء، ولكن هل يفعل الأصدقاء ما نفعل نحن؟